مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها وتعريبها

لمحمد مظهر سعيد
الاستاذ بمعهد التربية وكلية اصول الدين

النزعات الموروثة

يطلق المصطلح الافرنجي Innate Tendencies على جميع نزعات الانسان وقواه التي تنتقل اليه من النوع الانساني عامة بطريق الوراثة فتدفعه الى القيام بأعمال معينة — تختلف نبوغاً ومرونة بحسب مرتبة النزعة الخاصة من سلم التطور الانساني — من دون سابق خبرة او ارشاد او تعلم. وهي تتدرج من الجمود التام والثبوت على حال واحدة لا تتبدل ولا تتغير كحركة انعاض الجفن فجأة عند تحرك شيء ما بسرعة نحو العين، الى القابلية للتغير والتبديل والتهذيب نوعاً ما بالخبرة والتدكله كغرائز الهرب من الخطر وقتال العدو، وأخيراً الى أكبر قسط من المرونة والتعديل كاللعب والتقليد. وكان علماء النفس في اوربا وامريكا الى عهد قريب جداً يخلطون بين انواع هذه النزعات خلطاً لا حدّ له ويذهب كل منهم في تفسيرها وتسميتها ما شاء ان يذهب

أما الآن بعد ان دالت دولة التداعيين Associationists والسلوكيين Behaviorists والآليين Mechanistics وانتصرت مدرسة وليم ماكدوبل الهورمية Hormic او الغائية Purposive فقد تحددت المعاني وانتظم التقسيم وصارت النزعات الموروثة تنقسم الى ثلاث طوائف رئيسية — اولاها وأبسطها تركيباً طائفة الأفعال المنعكسة (او المعكوسة) Reflex actions وتتضمن الردود او التلبيات او الاستجابات reactions التي يقوم بها عضو واحد من اعضاء البدن لا البدن كلهُ بطريقة آلية ثابتة لا تتغير في جوهرها مع الزمن والخبرة كلما وجد مؤثر طبيعي خاص، وقد يشعر بها الانسان شعوراً واضحاً او غامضاً او لا يشعر بها على الاطلاق وقت حدوثها. ولكن لا يصحبها انفعال او لون وجداني خاص بها ولا تخضع لارادة الانسان ولا لتفكيره ومنها تغير اتساع حدقة العين عند التعرض للنور والظلام، والعطس عند وجود جسم غريب يلامس غشاء الانف، وانغماض الجفن عند وجود شيء يفاجيء العين. وكل ما يحصل فيها من التعديل هو مجرد ارتباط الفعل المنعكس بمؤثر آخر غير المؤثر الطبيعي يكون قد صحبه عدة مرات كسيلان لعاب الكلب عند سماعه

بين الجرس اذا تكرر قرع هذا الجرس كلما وجد الطعام امام الكلب . أما الفعل ذاته او التلبية المؤثر فلا تتغير في الحالتين وتسمى في هذه الحالة افعال منعكسة معدلة او محولة او شرطية Conditioned

والطائفة الثانية هي طائفة الغرائز Instincts وقد عرَّفها ما كدوجل « بالنزعة الوراثية النفسية او الفسيكولوجية الفيزيقية Psycho-physical) الموروثة التي تدفع الكائن الحي الى ادراك موقف او مؤثر طبيعي معين (او مجرد الشعور بوجوده والانتباه له) . والشعور بانفعال نفساني خاص على اثر هذا الادراك . ثم النزوع او التصرف تصرفاً خاصاً للوصول الى غرض خاص او على الأقل الشعور بوجود دافع نفساني لهذا التصرف ولو لم يتم . وهذه النزعات يتعين ان تكون عامة مشتركة بين الانسان والحيوان وان اختلفت مظاهرها وألوانها . فلا بد اذن من توافر هذه الشروط الاربعة في كل استعداد او نزعة موروثة حتى يصح اعتبارها غريزة . وعلى هذا الاعتبار صارت الغرائز الاساسية هي مجموعة غرائز حفظ الذات كالبحث عن الطعام بصرف النظر عن طرق هذا البحث ، والمسكن والوقاية وغيرها من الغرائز الفردية كالهرب من المخاطر والمقاتلة والنفور والجمع والغرائز الاجتماعية كالتسلط والخنوع والاستطلاع والتجمع وغيرها لان كلاً من هذه الغرائز له مؤثرات طبيعية محدودة وتحدث في النفس انفعالات محدودة واضحة كالخوف والغضب والحنو وغيرها . وهي كذلك تدفع الانسان الى القيام بأعمال خاصة توصله الى غرض خاص محدود يختلف في كل غريزة عن الاخرى وفوق هذا كله فهي عامة عند الانسان والحيوان ومهما تبدلت المؤثرات الطبيعية بغيرها مما يتصل بها او يماثلها او يحل محلها ومهما تعدلت أساليب التصرف وتغيرت مظاهر السلوك بالخبرة والذكاء والبيئة فالانفعال باق على ما هو عليه لا يتغير . ولا يتبدل والغرض الطبيعي الذي ترمي الغريزة الى تحقيقه عن طريق النزوع كذلك موجود في جوهره وان اختلف وارتقى وسما في مظهره

والطائفة الثالثة — تتناول النزعات الموروثة الراقية غير المحدودة المتنوعة الجوانب التي لا يثيرها مؤثر خاص بعينه ولا ترمي الى غرض خاص بعينه . واظهر ما فيها انه لا يصحب كلاً منها انفعال خاص يميزها عن غيرها كما هي الحال في الغرائز وان شعر معها الانسان بالارتياح عند تمام النزوع واشباعه او القلق والالم عند تعطيله والوقوف في سبيله او ثارت في نفسه عدة انفعالات . ولذلك تسمى بالنزعات الموروثة العامة او غير النوعية General or Non - specific Tendencies ومن اهمها الاستهواء Suggestion ومشاركة الغير في حالته الوجدانية Sympathy والتقليد Imitation والتعويض Compensation واللعب . وسنتحدث عن كل من هذه النزعات في شيء من التفصيل فيما بعد

***

هذا في المصطلحات الافرنجية اما في المؤلفات العربية فلا يزال الكتّاب والمؤلفون يخلطون

بين هذه الطوائف الثلاث فضلاً عن الخلاف في تسمية النزعة الواحدة مع تحديد مداها واغراضها

فتجد المرحوم الشيخ شريف يقول (ص ٤٢) بواعث غريزية صرفة يندفع اليها الطفل بطبيعته من غير علم ولا شعور ولا يتأثر منهُ بالكلية . ويقصد هنا منع وجود الانفعال . وفي (ص ٤٣) حركات غريزية غير مشعور بالغرض منها البتة او الشعور به خفي جدًّا كحركات الاجفان (وهذا فعل منعكس) واطلق على الغرائز في بعض المواقف بالقوة الطبيعية (ص ٣٤) الغرائز وغيرها مما ليست نفسية محضة ولا فكرية صرفة تدخل تحت القوة الطبيعية

***

ولا يزال الكثير من الكتاب والمؤلفين يخلطون بين انواع النزعات الموروثة فيسمون الارتضاع (مص الثدي) غريزة وهو فعل منعكس معقد واللعب والتقليد غرائز فالمحدثون من علماء النفس امثال بالدن وسللي وهي نزعات عامة غير نوعية كما بينا سابقاً وبعضهم يعتبر الحب والكراهية غرائز وهي عواطف

فتجد الاستاذ حامد عبد القادر في صفحة ٧٥ (في علم النفس الجزء الاول) يتكلم عن غرائز بناء الاعشاش او البيوت والغناء عند الطيور والدكتور علي عبد الواحد في مقاله عن الغرائز (العدد الاول من صحيفة دار العلوم) يذكر غريزة الجراحة عند بعض الطيور وغيرها من الاسماء الغريبة الذي تذكرنا بنزعة التقسيم والتبويب المتطرفة التي استولت على العلماء في اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحاضر فجعلتهم يعتبرون كل مظهر من مظاهر السلوك الانساني غريزة كاملة مستقلة بذاتها ويعطونها اسماً خاصًّا حتى بلغ عدد اسماء الغرائز التي وردت في مؤلفاتهم مائتين وخمسين وضع منها ثورندايك وحده اربعين . ولقد اراحنا مكدوجل من هذا الهوس فأصبحنا نعتبر هذه الغرائز الخاصة بجنس واحد من اجناس الكائنات الحية مظاهر والوان لغريزة واحدة عامة عند الانسان والحيوان فالهرب مثلاً هو اسم الغريزة او النزعة العامة عند الكائنات الحية اما التلون عند الحرباء والتماوت عند بعض الزحافات الصحراوية فألوان خاصة لغريزة الهرب وليست هي غرائز مستقلة تعطى لها اسماء خاصة بها

واعتبر الاستاذ حامد في صفحة ٧٦ التعبير عما في النفس وحب الجمال وكذلك حب الثناء (ص ٨٥) غرائز ولا نعرف واحداً من علماء النفس المحدثين المعتبرين قال بهذا وقال بأن التأثر للحالة الوجدانية للغير غريزة وهو نزعة عامة . ونسب الاستاذ الايراشي في الفصل الذي كتبه عن النزعات العامة في نفس الكتاب (ص ٨٩) الى العلامة ماكدوجل انه يعتبر نزعة التدين والمنافسة والتعبير عن النفس نزعات عامة تتمم مع الاستهواء والمشاركة الوجدانية واللعب والتعويض مجموعة النزعات العامة غير النوعية وهو لم يقل بغير الاربعة السابقة

اما الاستاذ قنديل فقد جمع في صفحة ١٦١ في الجزء الاول من كتابه اصول علم النفس عدة تعاريف متضاربة متناقضة للغرائز في نظر مدارس علم النفس المختلفة وعطفها جميعاً عطفاً يجعل القارىء يعتقد ان هذه التعاريف كلها مترادفة ومقبولة . ثم تتبع تقسيم ماكدوجل للغرائز ولكنه ذكر معها غريزة الاستغاثة ونحن لم نسمع بها عن ماكدوجل او غيره من العلماء

اسماء الغرائز الاساسية

سنذكر الآن الترجمة التي نرتاح اليها لاسماء الغرائز الاساسية بحسب تقسيم ماكدوجل : —

١ — Flight : غريزة الهرب (من الخطر او المخاطر او الاشياء المخطرة) اما الخوف فهو اسم انفعالها

٢ — Fighting, Combative : غريزة المقاتلة او القتال وانفعالها الغضب — Pugnacity المشاكسة (او حب الخصام : قنديل)

٣ — Repulsion النفور او النبذ وانفعالها الاشمئزاز او التقزز (للامور المادية كالمذوقات العفنة والروائح الكريهة) .

٤ — Self-assertion اثبات الذات والتسلط والسيطرة جميعها نرجات مقبولة اما الظهور او حب الظهور او الرآسة فلا نرتاح اليها لانها درجات او نواحي خاصة للغريزة

٥ — Self-abasement الخضوع لانها تعبر تماماً عن المصطلح الانجليزي وفيها معنى الشعور بضعة الشأن وتليها في الافضلية كلمة الخضوع اما غريزة الانقياد فلا نرضاها لانها تدخلها في النزعات العامة وخصوصاً الاستهواء

٦ — Gregarious غريزة التجمع ولا نرضى البتة بكلمة الاجتماع (قنديل) لان كل انسان كما يقول ماكدوجل يميل بغريزته الى مجرد التجمع والوجود مع بني جنسه او على مقربة منهم ولو لم تربطه بهم رابطة او مصلحة او حتى لغة للتفاهم اي انه Sociable ولكنه لا يتعين بالضرورة ان يكون عضواً في جماعة منتظمة لها مصالح او اغراض معينة society حتى يكون Social فالغريزة اذن تدفع الى مجرد التجمع لا الى الاجتماع الذي هو ارقى مراتب التجمع وأرفعها . خصوصاً وان هذه الغريزة موجودة ايضاً عند الحيوان وهو ليس اجتماعياً وان كان يتجمع مع غيره

٧ — Curiosity الاطلاع او الاستطلاع — اما محبة الاستطلاع (قنديل ص ٢١٠) وحب الاطلاع (حامد ص ٨٥) وحب الاستطلاع (عند غيرهما) وكذلك حب الاقتناء وحب الظهور الخ لا نرضاها مطلقاً لان كلة حب ومحبة تنقلها من مرتبة الغرائز طفرة واحدة الى مرتبة العواطف وشتان بين مجرد النزعة او الغريزة وبين الحب والمحبة